شيء عن شعر الطفولة القصصي في أعمال الشعراء العرب المحدثين

د. إبراهيم محمد صبيح

لم يكن من اليسير أن يضع الباحث أو الناقد خطوطاً تقويمية لشعر الطفولة في الأدب العربي .. وليس من السهل أيضاً أن يرسم أحكاماً دقيقة ذات قيمة عندما يحدد الموضوع بشكل أدق، ويقصره على شعر الطفولة القصصي.

لقد واجهت الشاعر العربي في عصرنا الحديث صعوبات جمة، حدّت من عطائه وكادت أن تحول بين رغباته وطموحه، بسبب ما اعترضه من منغصات أدبية، حين وجد نفسه أمام مكتبة عربية قد أغرقها النتاج القصصي، الذي سموه جزافاً قصص أطفال. فبعد أن كانت المكتبة تفتقر إلى مثل هذا النوع من الأدب قديماً، بدأ كل من يقول الشعر في خوض هذا المجال الأدبي الدقيق والحساس، فأغرقوا السوق بهدف الكسب المادي .. الأمر الذي دفع الباحث إلى إجراء بحث أدبي شامل لكل العطاء الأدبي المقدم للأطفال وبخاصة الشعر القصصي. لأن كل عطاء أدبي لا يراعي مثل هذه المسألة الدقيقة، ربما يخرج عن منطوق الأدب الحقيقي الموجه للأطفال، ليصبح نتاجاً مختلفاً عن مثله في الأدب العالمي المتطور.

لقد وجدت القصة قديماً بين الأم وأطفالها لخلق جو مناسب، يدخل إلى النفوس الصغيرة السكينة والسعادة والشجاعة والإقدام، إذ أنّ فن القصة محبب إلى النفس الصغيرة أكثر من بقية الفنون الأدبية الأخرى. فهي الفن المقدس عند الأطفال، وهي عشقه وتسليته منذ بدء الخليقة كما يقول (إيزاك دنيسن).

منذ آلاف السنين والإنسان يتطور في عمله الأدبي مبدعاً من حوله التراث الذي يسعد الآخرين ويخلّد ذكراه، لأنه مدني بالطبع أولاً وأخيراً ... وبمرور السنين اتسعت خبرات الإنسان وزادت تجربته وكثر الناس وارتبطوا بحكم الحرص على البقاء والتطور فكونوا جماعات أكثر، وشدّ انتباه الإنسان وسط الجماعة مايدور حوله، فأخذ يحدّ من التفكير في ذاته ويقلل من الحديث عن نفسه، وحينئذ بدأ يتطور عقلياً ويتغير في معيشته، وظهر عنده الاستعداد كي يسمع بعد أن كان كل همه أن يقول(١)».

بدأ طفلنا العربي يسمع قصصاً من نوع جديد لم يتعود سماعه من قبل، فقد أورد القرآن الكريم الكثير من القصص على ألسنة الحيوان والطير، كقوله تعالى: «حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمانُ وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأنْ أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وتفقد الطير فقال مالِيَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين»(٢).

وهو وإن كان قصصاً على لسان النمل أو الهدهد كما ورد في الآيات الكريمة السابقة إلا أنه لم يكن من ذلك النوع الخرافي أو الأسطوري، وإنما هو القصص الحق.

والقصة على لسان الحيوان ليست جديدة على الشعر العربي، فالكل يعرف (كليلة ودمنة) الذي تُرجم إلى العربية قبل أن يترجم إلى اللغات الأوربية، ولقد برع الأديب الفرنسي (لافونتين) في قصصه التي اكتسبها من (كليلة ودمنة) وبرز فيها، وعن (لافونتين) أخذ شاعرنا أحمد شوقي، فأبدع وأجاد، حيث نجح في تقديم القصص والحكايات الشعرية، التي لا تقل جودة وجمالاً عن قصص وحكايات (لافونتين).

وإنَّ الدارس لطبيعة الطفولة وخاصيتها الذاتية، يرى أنها تتجه دائماً إلى قصص وحكايات رويت على لسان الحيوان والطير. فما أكثر ما حفظ الأطفال رائعة شوقي (الثعلب والديك) رغم اقتناعهم الأكيد بحقيقتها الخرافية.

ونلاحظ أنَّ الأطفال على تعدد بيئاتهم واختلاف مستواهم الاجتماعي والثقافي يميلون إلى القصص الخرافية، ويحبون سماعها لبساطتها ويسر تذكرها وحفظها، ولقد رأى جيمس ريفز وأن الحيوانات تمثل حالات مختلفة من الطبيعة الإنسانية. فالأسد يصور أخلاق الملوك، والحمار يصور الغباء والعند، والثعلب للمكر، والأغنام للسذاجة، والذئب للجشع والتوحش تجاه العزل من المقاومة وعديمي الحيلة ... إلخ.

ولقد عرف العرب قديماً القصص على لسان الحيوان ورووها. غير أنها لم تكن متكاملة فنياً كما نشاهدها اليوم. إذ كانت بدائية تقال بأسلوب شعري قصصي بسيط، لم تصل إلى المستوى الذي كانت عليه عند اليونان والهنود...

إنَّ ما جاء في شعر الفرزدق يرسم التجارب الأولية للشعر القصصي على لسان الحيوان ومن خلال حوار الشاعر مع ذئب جائع..

وأطلس عسّال وما كان صاحباً
دعوت لناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلتُ أدن دونك إنني
وإياك في زادي لمشتركان(٣)

وكذلك ما جاء في قصيدة البحتري التي تحكي قصته مع الذئب:

سما لي وبي من شدة الجوع مابه   ببيداء لم تعرف لها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجدُّ يبعثه الجدُّ
عوى ثم أقعى، فارتجزت فهجته   فأقبل مثل البرق يتبعه الرعدُ(٤)

إنَّ هذا النوع من الخلق الأدبي الجديد عند العرب القدامى دليل أكيد على أنَّ العرب قد حاولوا كتابة القصص الأسطورية.

وفي العصر الحديث كان للأدب العربي دور بارز في ميدان القصة والأسطورة، فقد

أنجز بعض الشعراء الرواد من أمثال أحمد شوقي شعراً قصصياً رائعاً للأطفال، معبرين عن رغبات هذا الجيل وطموحه فكانت أشعارهم التي تحكي قصصاً وروايات على لسان الحيوان والطير .. «وكان شوقي بأغانيه وقصصه الشعرية التي كتبها على ألسنة الطير والحيوان للصغار رائداً لأدب الأطفال في اللغة العربية، وأول من كتب للأحداث العرب أدباً يستمتعون به ويتذوقونه»(٥).

ويقول شوقي عن الحكايات والأغاني التي قدمها للأطفال في الوطن العربي كتجربة شعرية رائدة ... «وجربت خاطري نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث، أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره، وأنا أستبشر لذلك، وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال من البلاد المستحدثة منظومات قريبة المتناول، يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم»(٦).

وانطلاقاً من هذا الاقتناع، بادر شوقي بإنتاجه الشعري الجديد الذي يعد مفخرة الشعر العربي الحديث...

لقد أبدع شوقي في كتابة القصة الشعرية الهادفة والتي كان بحق رائدها في وطننا العربي ... إن إذّ قصته المعروفة (اليمامة والصياد) خير شاهد على ما نقول:

يمامة كانت بأعلى الشجرة   آمنة في عشها مستترة
فأقبل الصياد ذات يوم   وحام حول الروض أي حوم
فرزت من عشها الحمقاء   والحمق داء ما له دواء
تقول جهلاً بالذي سيحدث   يأيها الإنسان عمْ تبحث؟
فالتفت الصياد صوب الصوت   ونحوه سدّد سهم الموت
أقول قول عارف محقق   «ملكت نفسي لو ملكت منطقي»(٧)

لقد عبرت هذه الأبيات عن حكمة معروفة يتداولها الناس «مقتل المرء بين فكيه» حيث إنّ هذا النوع من القصص، يكشف للقارئ والسامع عن حقيقة هي (أن للحديث وقته كما أن للسكوت وقته).

إنّ عظمة شوقي كشاعر قاص، تكمن في محاكاته (للشاعر لافونتين) محاكاة إيجابية،

تنبع من خيال أديب قادر على المحافظة على شخصيته الأدبية المستقلة كما تنبع من كونه الإبداعي لا التقليدي.

يحكون أنَّ أمة الأرانب   قد اتخذت من الثرى بجانب
وابتهجت بالوطن الكريم   وموئل العيال والحريم
فاختاره الفيل له طريقاً   ممزقاً أصحابنا تمزيقا
وكان فيهم أرنب لبيب   أذهب جلَّ صوفه التجريب
نادى بهم معشر الأرانب   من عالم وشاعر وكاتب
اتحدوا ضد العدو الجاني   فالاتحاد قوة الضعاف(٨)

إنَّ هذا النوع الجديد المتميز من الشعر القصصي قد ضمن لشوقي الخلود الأدبي، ولا سيا عندما جعل له هدفاً.

ومن رواد الشعر القصصي العربي في العصر الحديث (عثمان جلال) الذي أعطى تجربة شعرية جديرة بالاهتمام، نقل فيها حكايات (أيسوب اليوناني) بلغة أتقن فيها الحبكة والطرافة والسهولة:

فقال في كتابه (العيون اليواقظ):

حكاية الذئب مع الخروف   رسمتها بأجمل الحروف
كان الخروف عند نهر يشرب   والذئب فوق ربعه أو أقرب
فقال: يا خروف - حين جاء -   يكفيك عكَّرت عليَّ الماء
قال أبو الصوف لهذا الضاري   الماء من عندك نحوي جاري
وكيف قلت: إنني أعكر   ذكرت يا سرحان مالا يذكر(٩)

ومن الرواد أيضاً الأديب الشاعر (كامل الكيلاني) الذي أعطى الكثير للأطفال فكان بحق ممن يفاخر بهم عالمياً في مجال شعر الطفولة القصصي. كيف لا!! ولوحة (الباز واللقلق) مسجل على صفحة حُوارية رائعة تقول:

قنص الباز قُبَّرة   وعلا البشر منظره
فانبرى اللقلق له   ورمى الباز بالشره
قال: اطلق سراحها   تأت براً ومأثره

ومنها:

هزئ الباز قائلاً   سيدي ألف معذره
غير أني تريبي   مفعلة منك منكره
ضفدع بين يديك   تزجيه كالكره
فافعل الخير بادئاً   ثم لمي على الشره(١٠)

لقد أبدع شاعر الأطفال (سليمان العيسى) عندما قصر شعره هذه الأيام على الأطفال فقط. وقدمه في صورة رائعة يقبل عليها الصغار ويعشقونها، وهذه قصيدة (كندة تحكي قصتها) جاءت بلسان قبيلة عربية أصيلة. تتحدث عن نفسها:

إسمي كندة
اسمي من أحلى الأسماء
اسمي جاء من الصحراء
كنت نشيداً في نجد
ورق الرند عطر الرند
لون الرند كنت بنجد

وتسمع العيسى في مكان آخر من قصيدته القصة التي يقدمها للصغار يقول:

كنت أميرة ... يذكر جدي
كنت على الصحراء أميرة
منذ قديم .. مرَّ نسيم
حدثني في الفجر وطار
يحمل اسمي في الأقطار
صرت الطفلة صرت الوردة
اسمي كندة..(١١)

لقد اتسع ميدان شعر الطفولة القصصي في الوطن العربي في العصر الحديث، حيث امتد من أقصى الوطن إلى أقصاه، فهاهوذا الشاعر السوداني مبارك حسن خليفة يقدم إلى الأطفال قصة جيدة يقول فيها:

أطفالي الصغار
بعد أن حكيت أمس قصة الثعبان
عدد الأرداء كل آن
لكنه الثعبان ما تغير الثعبان
أو أن أقص عن أبي
حكاية حكى له أبوه ساكن الجنان(١٢).

ومن الذين كتبوا للأطفال الشاعر السعودي (حسين عبدالله القرشي) واحد من الذين يرسمون بالصور المعبرة والألفاظ الموحية، فتحس وأنت تقرؤه كأنك أمام لوحات فنية ناطقة، فلنسمعه في حكاية الطفل الذي أضاع نقوده في يوم ماطر موحل:

وجرى يخوض في الوحولْ
طفل صغير
يبكي كما بكت السماء
يبكي وكم زلّت هنا قدماه
فارتاع الصغير
يبكي .. أبي .. أمي .. لقد ضلَّ الطريق
ويصيح قد ضاعت نقودي بعدما ابتلَّ الإزار
إني مُضاع ... إني مضاع!

ويحث الشاعر الخطى نحو الطفل ويطيب نفسه بكلمات رقيقة...

وعجلت أسرع للصغير
لا تبك إني قد وجدت لك النقود
قل من أبوك؟... فلم يقلْ .. بل راحَ يتفقد الفلوس
ويعدها جذلان في فرح مثير
عمّاه! قد زادت نقودي في الطريق(١٣).

لقد وضح من خلال هذا العرض الموجز لشعر الطفولة القصصي، أنَّ هذا النوع من الشعر كان مقصوراً على الكبار دون الصغار، على اعتبار أنهم كائن يعيش عالة على من

هم أكبر منهم في كل شيء. وبقي الحال هكذا فترة طويلة من الزمن، إلى أن تبلور تفكير الإنسان وعلمه، فبدأ يستجيب لرغبة الطفل وإلحاحه المستمر الذي يلازمه عندما يتوق إلى سماع والديه وتقليدهما.

ومع دورات الزمن، وعلى مسيرة الدرب الطويل من حكايات الكبار ومع خطوات التطور من سرد الحقيقة المجردة إلى القصص بأنواعها. كانت تعيش حكايات الأطفال عالة على خيال الكبار، وتسير في ظله تستلهم منه نسجها، وتتخذ من تراث البشرية القصصي مصادر تغترف منه مادتها. وصارت حكايات الأطفال كالجدول الصغير ينساب في موازاة النهر العظيم من قصص الكبار ويستمد منه الحياة(١٤).

لقد رأينا كيف بدأ الكبار من شعراء الأمة العربية يهبطون من برجهم العاجي إلى مخاطبة الأطفال ومداعبتهم، بما يمتعهم ويرفع من مستواهم الأدبي والعلمي والثقافي والتربوي، حيث وجد هؤلاء الكبار أنّ شعرهم بحاجة إلى اللون الزاهي الذي يضفيه عليه شعر الصغار، كذلك وجدوا أنّ أدبهم ناقص إذا لم يزين بأدب الأطفال.

مراجع البحث :

١ ـ د. علي الحديدي، في أدب الأطفال ـ ١٩٧٩م
٢ ـ سورة النمل، الآيات ١٨ ـ ٢٢.
٣ ـ ديوان الفرزدق.
٤ ـ ديوان البحتري.
٥، ٦ ـ في أدب الأطفال، المرجع السابق.
٧، ٨ ـ الشوقيات.
٩ ـ العيون اليواقظ.
١٠ ـ مختارات كامل الكيلاني ١٩٢٩.
١١ ـ سليمان العيسى، غنوا يا أطفال ١٩٧٨م.
١٢ ـ مبارك حسن خليفة، ديوان ألحان قلبي ١٩٦٤م.
١٣ ـ حسن عبدالله القرشي، ديوان الأمس الضائع ١٩٥٧م.
١٤ ـ في أدب الأطفال، المرجع السابق.